

## الفرد والجماعة في الشعر الجاهلي

د. عبد المجيد زرافطة

### الفرد هو الأساس

وهذا ما سوف نفعله عبر قراءة للشعر الجاهلي نظّمها وافية، وإن تكن غير شاملة وغير متقضية، لأن هذا يحتاج إلى دراسات مفصلة ومطوّلة.

### تأثير الشعر والدور القبلي للشاعر

لم يكن الشعر، في العصر الجاهلي، التعبير الفني المعادل للتجربة الانسانية في هذه الفترة المميّزة من التاريخ فحسب، وإنما كان وسيلة الإعلام الاجتماعية والسياسية الوحيدة أيضاً. ولعله، انطلاقاً من هذه الوظيفة التي كان يؤديها بجدارة، كان ذا أهمية كبرى أدركها الجميع وعبر عنها الشعراء، فقال بعضهم:

- وأصَبَحْتُ أَعَدَدْتُ لِلنَّائِبِ

بِ عَرَضاً بَرِيئاً وَعَضْباً صَقِيلاً  
وَوَقَعَ لِسَانِي كَحَدِّ السَّنَانِ

ورحماً طَوِيلَ الْقَنَاقَةِ عَمَلَا  
- بَابُ الشَّعْرِ لَيْسَ لَهُ مَرْدٌ

إِذَا وَرَدَ الْمِيَاهُ بِهِ التَّجَارُ

كان المجتمع الجاهلي الذي نظمنا إلى معظم نصوصه الشعرية<sup>(\*)</sup> مجتمعاً قبلياً تشكل القبيلة وحدته: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

والمعروف أن الجماعة/ القبيلة كانت تغطي، في وجودها، على الفرد، في هذا المجتمع، فتكاد تلغيه. ولكننا نزعم، على ضوء قراءتنا للعديد من نصوص الشعر الجاهلي، أن قراءة متأنية لهذا الشعر تتيح لنا أن نضيف إلى ما هو معروف ومتداول حقيقة يمكن لمسها بوضوح. ومفاد هذه الحقيقة أن الفرد، في الشعر الجاهلي، هو الأساس. ونعني الفرد الذي يحسّ فرادته ويختار طريقه ويمتلك رؤيته ويسعى لتحقيق ذاته وتنفيذ مشروعه في إطار تجربة من العيش فريدة؛ وذلك بعد أن يعي شروط هذه التجربة ويتعامل مع مكوناتها.

يحتاج هذا الزعم الذي نذهب إليه إلى ما يؤكدّه.

(\*) كلية الآداب - الجامعة اللبنانية.

وهكذا، كان للشاعر موقع مميّز في القبيلة، فكان لسان حالها والناطق باسمها المدافع عنها، وكثيراً ما كان سيّدها. وهو، في موقعه هذا، كان يتوحد مع الجماعة، فيبدو وكأن لا وجود مستقلاً له. إن «أنا» لا تبدو في قوله، وإنما «نا» هي البارزة، والانتفاء إلى «عصبه» هو الجليّ.

### مهمة قبلية: ولاء مطلق للجماعة

قد نقول: إن الشاعر كان يحقق وجوده من خلال الجماعة التي يقودها أو يرسم خطواتها ويكشف دربها. وقد يكون ما نقوله صحيحاً، ولكن لنتمهّل قليلاً ولا نستبق النتائج، ولنقرأ أمثلةً ونستقصي، من ثم، الولاء القلي للشاعر الفرد. يقول عمرو بن كلثوم مخاطباً عمرو بن هند في قصيدة مشهورة:

... أبا هندٍ فلا تعجل علينا  
وأنظرنا نخبرك اليقيناً  
بأننا نورد الرايات بيضاً  
ونصدرهن حمراً قد رويناً

وهذا الصّوت الذي سمعناه ليس صوت عمرو بن كلثوم/الفرد المستقل. وإنما صوت الجماعة القبلية التي تتوحد وراء قائدها، ويكون ولاء الفرد لها ولاءً مطلقاً يجعل منها قوّة تُرهّب وتُخاف، إن عمرو بن كلثوم مثل مالك بن مسمع الذي تساءل أحد الخلفاء عن مصدر قوّته فقليل له: «لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أيّ شيء غضب».

وقد يكون للفرد رأيّ يقول ويدافع عنه، ولكنه ينصاع في النهاية لموقف القبيلة وينقاد إليها ويفعل ما تفعل. فهذا عبيد بن الأبرص نصّح فلم يُطع فقال:

... فلما عصوني كنت منهم، وقد أرى  
غوايتهم وأنسي غير مهتدي

ولعلّ حيرة العرب أمام شدّة تأثير هذه الكلمات المتّقمة الحكيمة وعدم مقدرتهم على فهم مصدرها وتعليل تأثيرها هي التي ردّت الأسباب إلى قوى خارجية مؤثرة، فكان العرب يعتقدون بوجود علاقة بين الجنّ والسّحر والشعر، وكانوا ينسبون الموهبة الشعرية لشیطان يوحىها.

والأخبار عن هذا الاعتقاد وعن قوّة الهجاء السّحرية تنتشر في كتب الأدب والتاريخ العربيّة<sup>(2)</sup>.

هذا الارتباط بين الشعر والسّحر والجنّ، في وهم العرب، وذلك الاعتقاد بقوّته القاهرة الصادرة عن قوة خارجية جعلاً للشاعر مركزاً مرموقاً، وليس أدلّ على هذا من الخبر التالي: «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعون في الأعراس، وتباشر الولدان، لأنه حماية لأعراضهم وذّب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكورهم...»<sup>(3)</sup>.

وقد وعى الشعراء هذه الحقيقة وأدركها الأدباء أيضاً، فعندما يؤكّد أبو الدّهمان:

- وللشعراء ألسنة حدادٌ  
على العورات موفيةٌ دليله  
إذا وضعوا مكاييم عليها  
- وإن كذبوا - فليس هنّ حيله

يردّد الجاحظ قوله وكأنه حقيقة راسخة. وكان طرفه قد أوضح من قبل المضائق التي تلجها القوافي فقال:

رأيت القوافي تتلججن موالجاً  
تضايق عنها أن تولجها الإبر  
ولعل هذا ما جعل بروكلمان يقول: «ونحن نعرف أن الشعراء لم يكونوا في العهد الوثني مفعرة قبائلهم فحسب، بل كانوا يلعبون أدواراً سياسية أيضاً»<sup>(4)</sup>.

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت  
غويت، وإن ترشد غزيرة أرشد  
وفي كثير من الحالات لا يكون التنازل عن الرأي  
فحسب، وإنما يكون تنازلاً عن حقٍّ وعن إساءة،  
فهذا هذبة بن الحشرم، يقول:

... وإني من قضاة من يكدها  
أكده وهي مني في أمان  
سأهجو من هجاهم من سواهم  
وأعرض منهم عمن هجاني

وكان الشاعر الجاهلي كان بحاجة لما يقنعه بصوابية  
موقفه، فجعل الأعشى لهذا الولاء المطلق بعداً إلهياً،  
ورآه قدراً يجزي الله عنه ثواباً، وكأنه نوع من الطاعة  
الدينية الواجبة، يقول الأعشى في هذا الصدد:

فإن أنأ عنكم لا أصالح عديركم  
ولا أعطيه إلا جدالاً وحرّاً  
وأدفع عن أعراضكم وأعيركم  
لساناً كمقراض الخفاجي ملحّباً  
هنالك لا تجزوني، عند ذاكم  
ولكن سيجزيني الإله فيعقبنا  
وجعل عنتة لهذا الولاء بعداً سلطوياً، فهو يخضع  
لنظام يرعاه سيد مطاع، ولولاه لا تنتفض وغير ما  
يجب تغييره بقوة السيف، ولكن الطاعة للسيد تجبره،  
والحب الذي يرفعه إلى مرتبة السادة الأحرار يجبره  
أيضاً، يقول عنترة:

- سأجهل بعد هذا الحلم حتى  
أريق دم الحواضر والبوادي  
ولولا سيدّ فينا مطاع  
عظيم القدر مرتفع العمد  
أقمت الحق في الهندي رغماً  
وأظهرت الضلال من الرّشاد

- ولولا حبّ عبلة في فؤادي  
مقيم، ما رعبت لهم الجمالاً  
ويبدو أن لهذا السيد المطاع صفات ينبغي أن  
تتوافر فيه وواجبات ينبغي أن يؤدّيها. وقد نجد كثيراً  
من مواصفات هذا السيد في قول الأعشى:

وكن لها جملاً ذلولاً ظهره  
اجمل وكن معاوداً تحملها  
... وأهان صالح ماله لفقيرها  
وأساء، وأصلح بينها، وسعى لها  
لأن، كما يقول زهير:

من يك ذا فضل فيبخل بفضله  
على قومه، يستغن عنه ويذمم  
والشاعر الذي كان يريد ألا يستغنى عنه ويذمم  
كان يؤدّي دوره في إطار الولاء القبلي، فكان لسان  
القبيلة وسياسيتها، إن لم يكن فارسها وأحد ساداتها.

كان لسان القبيلة ينطق بما يوحدّها ويقنعها بقوتها  
ويهيئها للمعركة الدائمة وبقيةها على أهبة  
الاستعداد. فالقبيلة في وضع الغزو الدائم كانت  
بحاجة لأن تُرهّب وتُخاف، وبحاجة لأن تعلم القبائل  
الأخرى مدى قوتها، بل إنها بحاجة لأن يعلم أبنائها  
هذا ويعتقدونه، أوليت حياتها حرباً دائمة. إن  
الفخر القبلي كان نوعاً من نشيد القوة الدائم الذي  
ينشده الشاعر جاعلاً القبيلة على حالة من التأهب  
الدائم. فأبنائها يطربون إلى الشرّ غير سائلين عن  
برهان مقنع، كما يقول قريظ بن أئيف:

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه هم  
طاروا إليه زرافاتٍ ووحداناً  
لا يسألون أحاهم حين يندبهم  
للتأثبات على ما قال برهانا  
وكان ظاهرة الطيران إلى المعركة كانت عامّة، فهذا

زهير حكيم الجاهلية وحكيم القوم وداعية السلام  
يقول:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم  
طوال الرماح لا ضعاف ولا عَزْلُ  
إذا لقحت حرب عوان مضرّة  
ضروس تهرّ الناس أنيابها عُصْلُ  
يحشونها بالمشرفيّة والقنا  
وفتيان صدق لا ضعاف ولا نُكْلُ

وهم يفعلون ذلك كي يقوا قادرين أن يفعلوا،  
كما يقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السحاب بأرض قوم  
رعيناه وإن كانوا غُضابا

سُمّي هذا النوع من الدِّفاع عن القبيلة فخراً،  
وقد كان مُهمّة أساسيّة للشاعر، ويدخل في هذا  
الاطار ما سُمّي أيضاً بالهجاء، فهو لم يكن سوى نوع  
من الحرب النفسيّة التي يخوضها الشاعر بلسان جماعته  
ضد الجماعة الأخرى. كان على الشاعر ان يكون  
سياسيّ القبيلة وصحفيها السياسيّ أيضاً، ويبدو لنا  
هذا من خلال العديد من الأخبار والكثير من الشعر.  
ولنأخذ مثلاً على ذلك: «رأى قيس بن زهير لقومه:  
حالفوا قوماً في صَيّابة بني عامر ليس لهم عدد فيبغوا  
بعددهم عليكم، وإن احتجتم ان يقوموا بنصرتكم  
قامت بنو عامر. فحالفوا معاوية بن شكل... بن  
عامر، فمكثوا فيهم فهجاهم النابغة بهذه الأبيات:

جزى الله عبس آل بغيض  
جزاء الكلاب العاويات وقد فعل  
فأصبحتم، والله يفعل ذاكم  
يعزّكم مولى مواليكم شكل  
إذا شاء منهم ناشئ دَرَبَحَتْ له  
لطيفة طيّ الكشح رابية الكفل

فلما بلغت قيساً، قال: ماله قاتله الله! لقد أفسد  
علينا حلفنا فخرجوا عنهم»<sup>(5)</sup>

فالنابغة، هنا، بوعيه لمجمل معطيات الوضع،  
استطاع تأدية مهمته السياسيّة القبليّة التي كانت في  
كثير من الحالات رداً إلى طريق الصواب، كما فعل  
عندما أبلغ قبيلته رسالته، لأنها أصبحت عن منهج  
الحق جائزة.

وفي إطار المهمة السياسيّة للشاعر، كان يدعو إلى  
وحدة القبيلة لأنه يرى في ذلك مصلحتها:

- وكانوا هم البانين قبل اختلافهم  
ومن لا يشد بنيانه يتهدّم  
- عذير الحيّ من عدوا  
ن، كانوا حيّة الأرض  
بغى بعضهم بعضاً  
فلم يبقوا على بعض  
- فاتركوا الطيخ والتعاشي وأما  
تتعاشوا ففي التعاشي الداء  
وكان، أحياناً، يدعو إلى إيقاف الحرب، كما فعل  
زهير حين مدح هراً وسناناً، وقال:

- تداركتما عبساً وذبيان بعدما  
تفانوا، ودقّوا بينهم عطر منشّم  
وعندما كانت القبيلة لا تقبل نصيحة شاعرها،  
كان يقف أحياناً موقف المهدّد بتركها إلى مصيرها،  
فنقرأ للنابغة قوله، عندما لم يرض قومه نصيحته:

نصحت بني عوف فلم يتقبّلوا  
وصيّاتي، ولم تنجح لديهم وسائل  
ولا أعرفني بعدما قد نيتكم  
أجادل يوماً في شويّ وجامل

جماعة جديدة وترزعع الولاء

والنابغة، في موقفه هذا، يتفرد بموقفه، ولعل هذا

يعود إلى تميّز تجربة النابغة بعلاقة كان قد انشأها مع غط آخر من «الجماعة» أدى إليه تطوّر المجتمع في أخريات العصر الجاهلي، وهذه الجماعة التي نعيها هي السلطة المركزية التي حاول الغساسنة واللخميون أن يسيطروا على جزيرة العرب.

كان النابغة سفير قومه في البلاط، يؤيّدهم وينصح للنعمان ألا يتعرّض لحلفائهم بني حنّ:

- تجنّب بني حنّ فإن لقاءهم كربه، وإن لم تلق إلا بصابر وينصح لقومه محدداً سلوكهم:

- يا قوم ان ابن هندي غير تارككم فلا تكونوا لأدنى وقعه جُزراً ويخاطب الملك بقوله:

من مبلغ عمرو بن هندي آية  
ومن النصيحة كثرة الإنذار  
لا أعرفنك عارضاً لرماحنا  
في جفّ تغلب، وادي الأمرار  
يتكلّم النابغة بصيغة «نا» مخاطباً الأمير اللخمي الذي كان في صراع مع القبائل في سبيل إقرار النظام. ولكنه كان يريد، وكما يبدو، من استقراء مواقفه، لسلطة مركزية أن تبسط سياستها على جزيرة العرب، فتقرّ النظام وتشيع العدل، فنقرأ له قوله في النعمان:

- تحسّف الأرض أن تفقدك يوماً  
وتبقى ما بقيت بها ثقيلاً  
لأنك موضع القسطاس منها  
فتمنع جانبها أن تميلاً  
وبأن لم يقدّم مثله:

إلا سليمان، إذا قال الإله له  
قم في البرية فاحدوها عن الفند

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته...  
...ومن عصاك فعاقبه معاقبة  
تهي الظلوم، ولا تقعد على ضمد  
ويتطوّر موقف النابغة ليغدو، كما تفيد هذه الأبيات:

- فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته  
وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب  
- فأهللي فداء لأمريء ان أتيت  
تقبل معروفي وسدّ المفارقا  
ولاء عبد لا حول له ولا طول يضحي بأهله من أجل أن يسدّ الأمير فقرة ويغنيه، وهو الذي آلى على نفسه «ألا يمدح الدهر سوقه»... وعندما تعيره قبيلته موقفه، يقول:

وعيرتني ذبيان خشيته  
وهل عليّ بأن أخشاك من عار؟  
إن شروطاً في الحياة الجاهلية تغيّرت جعلت للمال سلطاناً وسحراً وحولت الشعر عن وظيفته فصار مدحاً سار في ركه كثير من الشعراء، كان منهم النابغة الذي أحسّ، بعد أن غضب عليه النعمان في قصة معروفة، إحساساً غريباً يعبر عن قوله:

فلا تتركني بالوعيد كأنني  
إلى الناس مطليّ به القار أجرب

ويذكرنا إحساس النابغة بإحساس طرفة الذي أفرد أفراد البعير المعبد، فهو شبه به، غير أن الفرق بينهما بعيد، فالأول ترك قبيلته وانتمى إلى جماعة أخرى من أجل المال، والثاني أفردته قبيلته من أجل الثروة والمال، إضافة إلى أسباب أخرى...

نلاحظ، في موقف النابغة، تفرّداً؛ إذ حاول أن يجمع بين الطموح الشخصي المبني على الاستفادة من ظروف مستجدة وبين مصلحة القبيلة التي يريد لها أن

تسلك درياً تحدة رؤيته الخاصة للسلوك السليم. وكان انتهاء النابعة متذبذباً، ولكنه كان يتجه في النهاية لما يحقق طموحه الشخصي. ولهذا أحس النبذ، أو «الجرب» وفق تعبيره، عندنا اصطدم مع الجماعة التي كان يقدر أنها ستحقق له طموحه.

### حالات تفرد وصراع

ولا نعدم أن نلاحظ في الشعر الجاهلي حالات تفرد عديدة تعود إلى أسباب مختلفة، وسوف نلّم بأشهر هذه الحالات محاولين تلمس الرؤية إلى الفرد والجماعة فيها.

وإن حدث وتفرد متميز بموقف فإن موقفه يناقش، وقد حدث هذا كثيراً. نشير، على سبيل المثال، إلى حادثة كان بطلها حصين بن ضمضم الذي حاول نكث الصلح الذي أبرم بين عبس وذبيان... فقد نوقش هذا الموقف، وأعلن، بلسان القبيلة، رفض هذا التفرد الذي يجر على القبيلة ما لا يناسبها، والذي قام به حصين معتمداً على أن ألف فارس سيدعمونه في موقفه:

لعمري لنعم الحي جرت عليهم  
بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم  
وقال: سأقضي حاجة ثم أتقي  
عدوي بألف من ورائي ملجم

وعندما يكون الخلاف أساسياً يستعصي على التسوية فإن الفرد يتعد: إما اختياراً وإما خلعاً. ويفيد تتبع كثير من الحالات أن هذا الفرد كان يعود إلى حضن الجماعة وإلى ولائه لها وبخاصة وقت يحس أن الجماعة تحتاجه للمساعدة في مواجهة أمر عظيم.

انفرد المهلهل عن قبيلته وانصرف إلى حياته الخاصة التي اختارها، ولكنه سرعان ما عاد، بعد

مصرع أخيه كليب، ليقود حرب الثار قاتلاً:  
ولقد كنت إذ أرجل رأسي  
ما أبالي الإفساد والإصلاحا  
... كيف أسلو عن البكاء وقومي

قد تفانوا فكيف أرجو الإصلاحا  
ويعيد امرؤ القيس تجربة المهلهل، وينصرف إلى غط من العيش يراه أبوه خطراً على سلامة ملكه، فيحاول إصلاحه، وعندما يئس منه يطرده. فينتهي امرؤ القيس إلى جماعة أخرى يجدها أقرب إليه وإلى حياته التي اختارها، ويحيا مع هذه الجماعة وفق ما اشتهى وأراد. ولكنه لا يلبث أن يعود، بعد قتل بني أسد لأبيه إلى جماعته الأولى، ويعلن انتهاء لها: «إننا معشر يمانون»، ويؤكد حبه لأهله:

تطاول الليل علينا دمون - دمون إنا معشر يمانون -  
وإنا لإهلنا محبون.

نلاحظ، هنا، انتهاء إلى تحالف قبلي كبير: «يمانون» الذي كان يواجه تحالفاً قبلياً كبيراً أيضاً تنتمي إليه قبيلة أسد التي ثارت على حاكمها اليماني، والد امرئ القيس، وقتلته.

لا شك أن هذا الصراع يأخذ طابع محاولة تأسيس سلطة وسط الجزيرة العربية في إطار الصراع الإقليمي الذي كان قائماً آنذاك، وكان امرؤ القيس ضحية هذا الصراع الذي شهد مصرع أول محاولة عربية لقيام دولة على يد الفرس الذين كانوا يدعمون إمارة لخم والقبائل التي كانت تدور في فلكها.

يندم امرؤ القيس، ويرى أن الدهر يتغير وأنه أفنى شبابه في سلوك طائش، ويعلن ولاءه إلى جماعته ويتعهد بالسير في الطريق التي ترضاها «أقيال» (أي ملوك) حير وكندة:

... لعمرك ما إن ضرتني وسط حير  
وأقيالها<sup>(\*)</sup> إلا المخيلة والسُكر

\*\* في الأصل «أقوال». القيل ج اقوال وأقيال وقيل: الملك من ملوك حير. سُمي بذلك لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله. راجع =

وغير الشقاء المستبين فليتنى  
أجرَ لساني يوم ذلكم مجر  
وكان هذا لا يكفي فأكمل طريق ولائه وأوضح  
مفهومه لما ينبغي أن يكون عليه وضع جماعته / أسرته  
ووضع القبائل الأخرى، فوالده - وعمّه في موقف  
آخر - هو السيد المطلق المطاع: «الرب» والآخرين  
هم الخول. يروى أن امرأ القيس قال حين بلغه مقتل  
أبيه، وهو يلهو بدمون:

أرقت لبرق ليل أهل  
يضيء سناه بأعلى الجبل  
بقتل بني أسد رهم  
ألا كل شيء سواه جلل  
فأين ربيعة عن رها  
وأين تميم، وأين الخول؟

وبيلغ موقف امرئ القيس ذروته عندما يمرّ، كما  
يروى، بالصنم ذي الخلصة، ويستقسم بأزلامه،  
على عادة العرب الذين كانوا يستشيرون الآلهة لدى  
كل حادث جلل. ويستشير امرؤ القيس ذا الخلصة  
بشأن الثار لأبيه، فيخرج «الناهي» عن الثار ثلاث  
مرات، فيغضب ويكسر الصنم والأزلام ويقول:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا - مثلي وكان شيخك  
المقيورا - لم تنه عن قتل العداة زورا.

إن الآلهة لم تستطع ثني امرئ القيس عن الثار  
لأبيه، ثم لم تنه الصعوبات الكبرى التي واجهها سيما  
بعد أن ثار وقتل الكثيرين وألبس الكثيرين أيضاً  
الدروع المحماة بالنار. قد نقول إنه يريد تحقيق ذاته  
من خلال سبل قاداته إليها الحياة، كما كان يحاول  
ذلك في مطلع حياته من خلال سبل أخرى قاداته إليها  
الحياة أيضاً، وفي الحالتين لم يكن الخيار مطلقاً وإنما

هو خيار تحقيق الذات في ظل الشروط العامة.

وتنتهي الدروب بامرئ القيس إلى الموت غريباً،  
وتكون له رؤية إلى الموت فريدة. إنه لا يرى الصعوبة  
في الموت، فهو حثّ إن كان في قومه، وإنما في نوعيّة  
هذا الموت. يرى أن نفسه تساقط أنفساً بعيداً عن  
قومه الذين يشعرونه بالحنان والعطف والرعاية و...  
الأهميّة. ولعلنا نلمح، في هذا الموقف، إحساساً  
بالذات كبيراً. فهو يريد أن يشعر بأهميته وبقيمة  
فقدته، إنه يحسّ بفراة تريد أن تتأكد من خلال  
الجماعة، وهذا هو جوهر موقف الفرد الجاهلي من  
القبيلة. يقول امرؤ القيس في بث لا يحتاج إلى شرح:

... ولو أني هلكت بأرض قومي  
لقلت: الموت حق، لا خلودا  
أعالج ملك قيصر كل يوم  
وأجدر بالمنية أن تقودا  
بأرض الروم لا نسب قريب  
ولا شاف فيسند أو يعودا  
يعاني طرفة ظلم قومه، ويحسّ أن:

ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً  
على المرء من وقع الحسام المهند  
ويختار طريقاً لتحقيق ذاته يلومه أهله عليها،  
ويدعونه بئس من كل خير ويفردونه «أفراد البعر  
المعبد»، ويبقى مصراً على السير في طريقه عن وعي  
وتصميم. مقتنعا أن:

للفتى عقل يعش به  
حيث تهدي ساقه قدمه  
ويجهد في إقناع قومه بصوابيّة موقفه وسلامة  
اختياره، فيعاتب ويناقش:  
... فما لي أراني وابن عمّي مالكا

«جنابه»، ويرى أن قومه يكيدون له وأنهم «مع الأيام عون على دمه». ويصحو بعد سكر ويتنحي بعد ذلّة، لأن من يهوى «العلا» لا يمكن أن يركن ويهدأ، فهو سيبقى في سعي دائم لتحقيق ما يتغيه مخنّراً الوسائل التي تناسبه، ويصبح مؤثّياً نفسه:

إلى كم أداري من تريد مذلتني  
وأبذل جهدي في رضاها وتغضب؟!؟

ثم يخاطب عبلة مهتداً:

عبيلة أيام الجمال قليلة  
لها دولة معلومة ثم تذهب...

ويشكو لها وضعه وتماذي قومها في عذابه:

ألا يا عبلُ قد زاد التصابي  
ولجّ اليوم قومك في عذابي

ولنلاحظ هذه «الكاف» في «قومك»، إنها تفيد موقفاً من بني عبس قومها وقومه، فهو لا يحس أنهم أهله ولا ينسبهم إليه، ولكنه عندما يخاطبهم، معاتباً ومذكراً، يصرّح بانتائيه لهم؛ وكأنه يؤد أن يذكرهم بهذا أيضاً أنه واحد منهم فلم يستمروا في بغيهم عليه؟ يقول عنتره، مقارناً بين صنيع قومه وصنيعه:

أذكر قومي ظلمهم لي وبغيهم  
وقلة إنصافي على القرب والبعد  
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً

فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي  
ويجد عنتره أن التذكير والعتاب لا يفيدان، فينتقل إلى النقاش، محاولاً تفنيد حجج قومه وبيان عدم صحتها؛ فهو إن يك أسود اللون فالسود ليس لوناً رديئاً فأفضل الأشياء المسك لونه أسود. كما أن هذا اللون قدره الذي لا يمكن تغييره، إذ ليس له دواء:

لئن أك أسوداً فالسك لوني  
وما لسواد جلدي من دواء

متى أدن منه ينأ عني ويبعد  
فلذري وعرضي إنني لك شاكر  
ولو حلّ بيتي نائياً عند ضرغدي  
فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد  
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد  
فأصبحت ذا مالٍ كثير، وعادني  
بنون كرام سادة لمسود

يصرّ طرفه، معانياً «النأي»، مقتنعاً بقدر يقدر الأرزاق هو «ربه»، وإعياً قيمة المال الذي صار يحدّد العلاقات الاجتماعية، ويصرّ قومه رافضين سلوكه المبدّد للثروة والمتعارض مع قيمهم، فينتقل إلى التهديد والفخر بنفسه وبيان أهميته، وكأنه يسعى إلى تحقيق ذاته:

... وقربت بالقربى، وجدك إنني  
متى يك عهد للنكيثة أشهد  
ولكنه يعود في النهاية ليعلم ولاءه لجماعته التي تدعو «في المشاة الجفلى» ويقرّ أنه كان في قومه «كالمغطي رأسه... سادراً» بحسب غيه رشداً.

ويعي عنتره تفرّده وأهميته، ويرى المكانة التي حققها لقبيله:

ولولا صارمي وسمان رمحي  
لما رفعت بنو عبس عمادا

ويسعى لتغيير شروط حياته: يتحرّر من العبودية ويتزوّج إحدى الجميلات وابنة أحد سادة القوم ويغدو سيّداً، فيصطدم بقيم الجماعة ويخوض صراعاً مبرراً يعاني فيه الكثير، مستخدماً سلاحاً تظلّ جماعته في حاجة إليه في كل حين، ألا وهو سلاح القوة. ويتجلى، في تجربة عنتره، صراع الفرد والجماعة أفضل ما يكون التجلي.

يرى عنتره أنه حفظ قوماً أضاعوه ولم يراعوا



بحجج حكمية «تؤدج» موقفه، وهو يحتاج إلى مثل هذه الحجج كي يبيّن موقفه على قاعدة صلبة تمكنه من الصبر الذي اختاره وسيلة لتحقيق مشروعه. يقول عنتره معلناً ولاءه المبرر:

- لا يحمل الحقد من تعلوبه الرتب  
ولا ينال العلا من طبعه الغضب  
ومن يكن عبد قوم لا يخالفهم  
إذا جفوه ويسترضي إذا عتبوا  
- سأحلم عن قومي ولو سفكوا دمي  
وأجرع فيك الصبر دون الملا وحدي  
ويقول عنتره، محدداً طريقه الذي سيسلكه حتى النهاية أو يموت دونه:

ما دمت مرتقياً إلى العليا  
حتى بلغت إلى ذرى الجوزاء  
فهناك لا ألوي على من لامني  
خوف الممات وفرقة الأحياء  
فلاغضبني عواذلي وحواسدي  
ولأصبرن على قلبي وحواء  
ولأجهدن على اللقاء لكي أرى  
ما أرغبه، أو يحين قضائي...

تختلف السبل والوسائل، ويبقى الدافع واحداً وهو إرادة تحقيق الذات في ظل شروط حياة تتخذ القبيلة الوحدة الجماعية فيها. ولعل هذا يسمح لنا بعدم قبول ما يفيد الرأي التالي، في المطلق، «...» وكان في نظمهم قدر كبير من الاشتراكية التي تلغي شخصية الفرد، وتجعل إرادة القبيلة ومصحتها فوق إرادته ومصحته، فليس له وجود حقيقي إلا باندماجه وفنائه فيها»<sup>(6)</sup>.

### صراع يبلور مفاهيم جديدة

وإن كنا قد لمسنا حالات سعى فيها الفرد لتحقيق

ويضيف: والعيب ليس في لون بشره المرء وإنما في أمور أخرى كـ «الفحشاء»، وهي بعيدة عنه بعد الأرض عن جو السماء. وكأن عنتره يحاول وضع مقاييس جديدة تحدّد على أساسها قيمة الإنسان ومكانته. فضلاً عن بعده عن «الفحشاء» يؤكد تميزه وفروسيته، فيقول: إن كان السواد عيباً، فهو في الوقت نفسه نسب كبير وقت المعارك، فالسواد والشجاعة والفروسية صفات شخص واحد، هذا إن لم يكن السواد سبباً للقوة الجبّارة التي تعدّ أفضل نسب، وهو يدافع هنا عن كونه ابن أمة أيضاً، فيقول:

لئن يعيبوا سوادى فهو لي نسب  
يوم النزال إذا ما فاتني النسب

ويتهيئ النقاش بعنتره إلى نتيجة تقلب قيم القبيلة ومفاهيمها رأساً على عقب، ويضع قياً جديدة يراها القيم الأفضل، ويتحدث عنتره عن قومه بصيغة الغائب، وكأنه يش من مخاطبتهم مباشرة، أو لعله يؤدّ تقرير حقيقة تصلح للناس جميعهم، ويلفت في قوله نسب «الفخر»، في المطلق، إلى نفسه، وتحديد هذا الفخر عبر صورة معبرة: عمامة ترتفع حمية سيف قاطع:

يعيبون لوني بالسواد وإنما  
فعالمهم بالخبث أسود من جلدي  
وما الفخر إلا أن تكون عمامتي  
مكورة الأطراف بالصارم الهندي

ويبدو أن عنتره كان يدرك أن طموحه لا يتحقق إلا في إطار قبيلته، الأمر الذي يجبره على البقاء ابناً باراً لها يخوض صراعه معها في إطارها ويجبرها على اتخاذ المواقف التي تناسبه، ولكنه كان بحاجة إلى ما يبرّر له هذا الولاء، وقد مرّ بنا أنه برّره مرة بالطاعة للسيد المطاع ومرة بالحب، ونجده يبرّره مرة أخرى

ذاته منضوياً في إطار القبيلة، فإننا لا نعدم أن نلمس حالات كان الفرد فيها يختار الصدام مع القبيلة والخروج على إرادتها، وكان يدفعه إلى ذلك إحساسه بالظلم ووعيه لطرق تحقيق ذاته.

كان الظلم مرفوضاً، وقد يؤدي إلى مواقف يحددها ذو الأصبع العدواني، عندما يخاطب أقاربه قائلاً:

... يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي  
أضربك حتى تقول الهامة اسقوني  
لا يخرج القسر مني غير ما بيته  
ولا ألين لمن لا يبتغي ليني  
والله لو كرهت كفي مصافحتي  
لقلت، إذ كرهن قربي لها، بيني  
كما أن الظلم كان يدفع الفرد للتفكير في مفهوم  
القربة والانتفاء إلى الجماعة، ويجعله يحدد هذا  
المفهوم، فيقول الأعشى في هذا الصدد:

- ولقد أقطع الخليل، إذا لم  
أرج وصلاً، إن الإخاء الصداق  
- سأوصي بصيراً إن دنوت من البلى  
وصاة امرئ قاسى الأمور وجرباً  
فإن القريب من يقرب نفسه،  
لعمر أبيك، الخير، لا من تنسبها  
وقد تصل الأمور بالفرد، طالما أنه امتلك مفهوماً  
جديداً للانتفاء إلى جماعة، إلى مغادرة القبيلة والبحث  
عن مصيره في إطار جماعة أخرى يختارها بنفسه، وقد  
تفعل القبيلة ذلك فتطرد الخارجين على قراراتها، وكان  
هؤلاء يسمون الخلاء أو الصعاليك، وكان  
عددهم كبيراً لدرجة أنهم شكلوا ظاهرة برزت،  
بخاصة، في أواخر العصر الجاهلي؛ حيث تراكت  
الثروة في يد عدد من الأفراد، سعى عدد من الأفراد  
الآخرين إلى مشاركتهم فيها.

كُون عروة بن الورد العبي جماعة من هؤلاء

وحذب عليهم، وصار يرتاد البلاد لينال، كما يقول:

- دعيني للغنى أسعى، فلإني  
رأيت الناس شرهم الفقير  
- لعل ارتيادي في البلاد وبغيتي  
وشدي حيازيم المطية بالرحل  
سيدفعني يوماً إلى رب هجمة  
يدافع عنها بالعقور والبخل

ولم يكن السعي لنيل الغنى لصوصية، وإنما كان  
بحثاً عن الذات التي كادت تفقد أخص مميزاتا بعد  
أن تراكت الثروة في يد عدد محدود من الناس عبر  
عنهم عروة بتسمية أحدهم: «رب هجمة» من صفاته  
التنكر لقومه والبخل، وهذا ما لم يكن يوماً من قيم  
القبيلة وأخلاق سادتها. كان عروة يبحث عن  
الذات: ذات السيد العربي الذي يحمل الآخرين  
ويعول عليه الناس. إن الظلم يتخذ شكلاً جديداً،  
وإن دفعه يحتاج إلى طواف في البلاد، وهذا ما يفعله  
عروة الصعاليك، طالباً من حبيته أن تدعه:

- دعيني أطوف في البلاد لعلني  
أفيد غنى فيه لذي الحق محمل  
أليس عظيماً أن تلم ملئمة  
وليس علينا في الحقوق معول  
وهو ما يفعله الشنفرى طالباً من قومه أن يقيموا  
صدور مطيهم لأنه يميل إلى سواهم:

أقيموا، بني أمي، صدور مطيكم  
فلإني إلى قوم سواكم لأميل  
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى  
وفيها لمن رام القلى متعزل  
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ  
سعى، راهباً أو راغباً، وهو يعقل  
ولكن الناس هم الناس، يقول عروة:

ألا إن أصحاب «الكنيف» وجدتهم

كما الناس لما أمرعوا وتمولوا  
ويبقى انتهاء عروة إلى هؤلاء انتهاءً حقيقياً، فيكون  
وإياهم، كما يقول:

وإني وإياهم كذي الأم أرهنت  
له ماء عينيها تفلدي وتجمل

### الاحساس بالذات: مفهوم الآخر

والواقع أن احساس الشاعر الجاهلي بالآخر وعيشه  
معه كونا لديه مفهوماً عنه يكاد يكون قريباً من مفهوم  
حديث يقول: «الآخرون هم الجحيم» ولعل هذا  
المفهوم للآخر يؤكد الإحساس بتميز الذات ووعيها  
لفرادتها وملكيها لمشروعها الخاص الذي يصطدم  
بالآخر ومشروعه الخاص؛ الأمر الذي يقتضي تنظيماً  
وتفاهماً. وهذا ما نلمسه في كثير من نصوص الشعر  
الجاهلي.

يرصد الأعشى في كل ممثي عقرباً:

أرى الناس هروني وشهري مدخلي  
وفي كل ممثي أرصد الناس عقرباً  
ولا تترك العقارب له صاحباً:

ومن يقطع الواشين لا يتركوا له  
صديقاً، وإن كان الحبيب المقرباً  
ويكاد امرؤ القيس يرتضي صاحبه، ولكن هذا  
سرعان ما يتغير:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيت  
وقر له العينان، بُدلت آخر  
كذلك جدي ما أصاحب صاحباً،  
من الناس، إلا خاني وتغيراً  
ويجد طرفة الناس «كلهم أروغ من ثعلب»  
يشمتون، كما يقول النابغة بصاحبهم إن هلك،  
ويختفون عند وقوع الحدث الكبير، فيتساءل زهير:

... فأين الذين كان يعطي جواده  
بأرسانهم، والحسان الغوالي؟!  
وتكون تجربة عنزة مع الناس أشد مرارة، ويكفي  
أن نقرأ ما يقوله لتصور عظيم معاناته، التي جعلته  
يرى الناس في الصورة التالية:

... خدمت أناساً واتخذت أقارباً  
لعوني، ولكن أصبحوا كالعقارب  
ينادوني، في السلم، يا ابن زبيبة  
وعند صدام الخيل، يا ابن الأطايب  
ولولا الهوى ما ذل مثلي لمشلهم  
ولا خضعت أسد الفلا لبثعالب  
- لأي حبيب يصلح الرأي والود  
وأكثر هذا الناس ليس لهم عهد  
... وكل قريب لي بعيد مودة  
وكل صديق بين أضلعه حقد

يقر الشاعر الجاهلي بطبيعة الناس هذه بوصفها  
حقيقة ينبغي التعامل معها، وفق أسس يعبر عنها  
النابغة عندما يقول:

واستبقي وذك للصديق ولا تكن  
قتباً يعض بغارب ملحاحاً  
فالرُفق بمن والأناة سعادة  
فتان، في رفق، تنال نجاحاً  
ولهذا التأي أسبابه التي يلخصها النابغة بقوله:

ولست بمستبقي أخاً لا تلمه  
على شعبي، أي الرجال المهذب

### وعي الذات: أنا الفتي

يكون التأي من أجل نيل النجاح، نجاح الفرد  
الذي يجهد لتحقيق ذاته وفق رؤية خاصة ترسم  
مشروعاً تؤد له أن يتحقق. وهذا الذي نزعمه يقتضي  
أن يكون الفرد واعياً فرادته وتميزه، مختاراً طريقه،

إلى تحديد شروط التجربة الحياتية التي أثمرت رؤية فريدة انعكست في شكل شعري فريد أيضاً.

### شروط التجربة الحياتية

كان الجاهلي يعيش في الصحراء، والصحراء متاهات ومهالك تحتوي تنفاً من مستلزمات الحياة، يدور حولها صراع مريع بين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان وأخيه، وكل يريد البقاء.

وصف أحدهم الصحراء في مجلس عثمان، فلاحظ الخليفة آثار وصفه في وجوه القوم، فصاح بالرجل: «اسكت لقد رعبت قلوب المسلمين»<sup>(7)</sup>.

ولعل هذا الوصف الذي تعرفنا إلى آثاره يساعداً في تصوّرنا للمحيط الذي عاش فيه الشاعر الجاهلي والذي أراد، في إطاره، أن يحقق ذاته. ولنسمع المتلمّس وهو يتحدث عنه:

وكم دون مئة من مستعمل قذف  
ومن فلاق بها تستودع العيس  
ومن ذرى علم طام مناهله  
كأنه في حباب الماء مغموس  
ولم يكن الصّراع مع قوى الطبيعة فحسب، بل كان له شكل آخر عبر عنه المهلهل:

إن نحن لم نشأ به فاشحدوا  
شفاركم منّا لحزّ الخلق  
ذبحاً كذبح الشاة لا تتقي  
ذابحها إلا بشخب العروق  
ومن يريد أن يكون شاة؟

ولم يكن الفارس الجاهلي هيئاً في صراعه، بل كان يقاتل:

قتال، امرئ آسى أخاه بنفسه  
ويعلم أن المرء غير مخلّد

منادياً: أنا الفتى، أنا الذي لا يخفى عليه أمره، وإغا تكون الأمور أمامه واضحة في الليل والنهار، وهذا فعلاً ما يقوله طرفة في ما يلي:

- إذا القوم قالوا: من فتى؟ قلتُ أني  
عُنيت، فلم أكسل ولم أتبلّد  
... ولكن نفى عني الرجال جرأتي  
وصبري وإقدامي عليهم ومحتدي  
لعمرك، ما أمري عليّ بغمة  
نهار، ولا ليلى بمرمد  
ويعي عترة فرادته فيقول: أنا... بصوت جليّ  
قويّ:

سل المشرقي الهندواني في يدي  
يخبرك عني أني أنا عنتر  
وهو يسعى إلى العليا هذه الصفة، فيقول:  
وقل طلبت من العلواء منزلةً  
بصارمي، لا بأمي، لا، ولا بأبي  
وذلك لأن هذه الصفة هي الصادقة:

إذا أكذب البرق اللموع، لشائم  
فبرق حسامي صادق غير كذوب  
ويتجلى الموقف الانسانيّ الفردي في مواجهة  
التجربة الوحيدة التي لا يمكن للإنسان إلا أن يعيشها  
وحده منفرداً. يقول عنتره معانياً هذه التجربة:

إذا رشقت قلبي سهام من الصّد  
وبدل قربي حادث الدهر بالبُعد  
لبست لها درعاً من الصبر مانعاً  
ولاقيت جيش الشوق منفرداً وحدي

### رؤية الفرد للعالم

وإن كنّا على مسيس من الحاجة لتحديد رؤية هذا الفرد إلى عالمه وأشياء حياته، فإننا قبل ذلك نحتاج

## مواجهة الموت الحتمي

### في ظل اختفاء الانتفاء المبرر

كان الموت، بوصفه مصيراً حتمياً، ماثلاً أمام الجاهلي، وقد شكل القضية المحورية في تجربته. رآه زهير وطرفة حتماً يخطط خطب عشواء. وكان امرؤ القيس قد رأى الإنسان يموت كما يموت «البكر» من الإبل وكأنه لم يعيش ساعة واحدة، وإنه مخلوق لأمر غريب...

- أرى المرء ذو الأذواد يصبح مجرداً كاجراض بكر في الديار مريض كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة إذا اخلف اللحيان عند الجريض - أراننا موضعين لأمر غريب ونسحر بالطعام والشراب

بحث الجاهلي عن هذا الأمر الغريب ليدرك كنهه، وكان عليه أن يحدد هدفه من العيش... ولم يجد في النهاية، في ظل اختفاء الانتفاء المبرر، سوى ذاته فسعى إلى تحقيقها عبر مغامرة يسلك خلالها دروباً تتعدد بتعدد التجارب الشخصية: فمن ساع إلى المجد ومن مقتنص للذة...، وكل يرفض الحياة الذليلة طالباً الموت الكريم

يجد عنترة في سبيل العليا، ولولاها ما كان في العيش يرغب:

- دعني أجد إلى العليا في الطلب وأبلغ الغاية القصوى في الرتب بصارم حيثما جردته سجدت له جبابرة الأعجام والعرب - لغير العلامني القلى والتجنب ولولا العلاما كنت في العيش أرغب ويسعى امرؤ القيس لنيل المجد المؤئل رافضاً مجرد

وكان على حالة من تأهب دائمة، صنيع عنترة:

إذ لا أزال على رحالة سابع نهدي تعاوره الكماء، مكلم يجهد ليبقى واقفاً، ولكن الدهر: مجرى الحياة العام، يعانده، فيفسد ما يصلح، كما يرى الأعشى: ولكن أرى الدهر الذي هو خائر إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا ولكنه، وإن أحرقت بنار الجوى والفقد، كما يقول عنترة:

أحرقني نار الجوى والبعاد بعد فقد الأوطان والأولاد يبقى مثل الحسام يزداد صقلاً، ويقف على طريق الرّشاد:

ويح ذا الزمان كيف رماني بسهام صابت صميم فؤادي غير أني مثل الحسام إذا زاد صقلاً جاد يوم جلاد حنكتني نوائب الدهر حتى أوقفتني على طريق الرّشاد وهكذا يبدو الجاهلي إنساناً يواجه عالماً مليئاً بالتحديات. يواجه طبيعة قاسية توفر بالكاد الحد الأدنى للعيش:

وماء قد وردت أميم طام على أرجائه زجل القطا فبت أنهنه السرحان عنه كلانا وارد حران قاطي ويواجه مجتمعاً الحياة فيه للأقوى، وإلا فمصير الشاة التي تبقى بشخب العروق بالانتظار، فالموت يبرق واضحاً في كل حين، كما يقول تأبط شرا.

أجل أربع خلّاتٍ هي: المرأة والخمرة والفروسية  
والمغامرة

وكان طرفه عندما يختار طريقة المني على رؤية  
شاملة للعيش يعيد امرأ القيس، فهو يبقى يمارس  
حياته الخاصة إلى أن تتحاماه العشيرة ويفرد أفراد  
البعير المعبّد:

وما زال شرابي الخمر ولذّي  
وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي  
إلى أن تحامتن العشيرة كلها  
وأفردت أفراد البعير المعبّد  
ويطوف البلاد ويغامر تاركاً أهله، فتعيّره جارته،  
فيقول مبرراً سلوكه:

ولا غرو إلّا جاري وسؤالها  
ألاهل لنا أهل؟ سئلت كذلك  
تعيّرن طوف البلاد ورحلتي  
ألا ربّ دار لي سوى حرّ دارك  
وليس امرؤ أفنى الشباب، مجاوراً  
سوى حيّه إلا كآخر هالك  
ثم يقول محدّداً رؤيته للحياة ومذهبه في العيش في  
خلّات ثلاث هي: الخمرة، السيادة، والمرأة:

ألا أيّها الزاجري أحضر الوغى  
وأن أشهد اللذات، هل أنت مغلّدي؟  
فإن كنت لا تستطيع دفع منيّتي  
فدعني أبادرها بما ملكت يدي  
فلولا ثلاث هنّ من حاجة الفتى  
وجدك لم أحفل متى قام عودتي...

ولم يكن امرؤ القيس وطرفة وعنتره الوحيدين  
الذين طافوا وأطالوا الطواف، إن هم إلّا أمثلة لما كان  
عليه الإنسان الجاهلي، وما هو الأعشى يطول طوافه  
وترحاله:

العيش ولو كان في سعة، وهو سيحاول نيل هذا  
المجد ولو بذل من أجله حياته:

- فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة  
كفاني، ولم أطلب، قليل من المال  
ولكنّنا أسعى لمجد مؤثّل  
وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي  
- بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه  
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا  
فقلت له: لا تبك عينك وانما  
نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا  
يطوّف امرؤ القيس في الآفاق، ولا تكون غنيمة،  
فيرضى بالإياب في سخرة مريّة:

- ألا تكن إبل فمعرى  
كأنّ قرون جلّتها العصيّ  
فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً  
وحسبك من غنى شبع وريّ  
ويكلّفه هذا الطواف غالباً:

- ولو أن نوماً يشتري لاشرتيه  
قليلاً لتغميض القطا حيث عرسا  
ويتهي به إلى غربة، غربة عيش وغربة موت،  
والأمر من هذا الإقامة والثبات، وهو من اعتاد  
الطواف والسعي: والأكثر مرارة وغربة أن يواريه  
التراب، يقول امرؤ القيس:

أجارتنا إن المزار قريب  
وإني مقيم ما أقام عسيب  
... وليس غريباً من تناءت دياره  
ولكن من وراه التراب غريب

الطواف بحثاً عن الذات / قضية العيش

طواف امرئ القيس أصيل فيه، كان قبلاً من

ولعل طبيعة هذه التجربة التي نخدثنا عنها مُطوّلاً  
والتي يشير النابغة إلى بعض جوانبها بقوله:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له  
وتستقي مريض المستنفر الحامي  
أشياء الحياة كلها: الناقة، الخمرة، المرأة... في  
خدمة القضية

هي التي جعلت الجاهلي لا يرى إلا نفسه في هذا  
الوجود، وجعلته يريد أن يستخدم كل أشياء هذا  
الوجود من أجل أن يبقى قوياً قادراً على البقاء واقفاً  
إزاء القوى التي يصارع، رافضاً الظلم سريع الحسم في  
الأمور التي تنابه.

كان الجاهلي، في تطوافه، ليحصل المجد، وفي  
سعيه للعيش في ذرى العلياء، يقطع، كما يقول أبو  
النشاش:

ونائية الأرجاء طامسة الصوى  
خدت بأبي النشاش فيها ركائبه  
ليكسب مجداً أو ليدرك مغنماً  
جزيراً، وهذا الدهر جُمُ عجائبه  
وكما يقول امرؤ القيس:

وإد كجوف العير قفر قطعته  
به الذئب يعوي كالخليع المعيل  
ولنلاحظ تشبيه امرئ القيس، حيث يشير، فيه،  
إلى شروط الحياة الجاهلية، قفر فيه ذئب يعوي كما  
يعوي الطريد من قومه، صاحب العائلة الذي  
يبحث، كما الذئب، عن مصدر عيش...

إن طواف الجاهلي بحاجة إلى ناقة صليبة قويّة،  
تكون علاقته معها حميمة تستطيع أن تتجاوز به  
الصعاب، كما يقول المتنّس وطرفة:

- جاوزته بأموّن ذات معجمة

قد طفت ما بين بانقيا إلى عدنٍ  
وطال في المعجم ترحالي وتسياري  
ويبدو أن الجاهلي الذي اختار حياته ونمطها وحدّد  
غرضاً له فيها اختار طريقة موته أيضاً، وهي طريقة  
تلائم هذا النوع من الحياة، يقول عروة بن الورد عن  
الفارس الجاهلي:

فذلك إن يلقى المنية يلقها  
حميداً، وإن يستغن يوماً فأجدر  
فمثل هذا الموت، أي موت العزّ، خيرٌ من الحياة  
كما يقول الكثيرون، ومنهم عنتره والأعشى:

- دعوني في القتال أمت عزيزاً  
فموت العزّ خيرٌ من حياتي  
- فما ميتة، إن متها غير عاجز  
بعارٍ، إذا ما غالت النفس غولها  
ويتطوّر موقف عنتره إلى أن يتحدّى الموت، ويودّ  
لو يكون شخصاً كي يرعبه:

ولو أن للموت شخصاً يرى  
لروّعته وأكثر رعبه  
وهكذا لم يكن الموت مخيفاً، وإنما كان الموت العزيز  
مجال فخر:

وما مات منّا سيّد حتف أنفه  
ولا طُلّ منّا حيث كان قتيلٌ  
تسيل على حدّ الطبّات سيوفنا  
وليست على غير الطبّات تسيلُ  
وما كان الجاهلي يبكي موته:

- ولا تراهم، وإن حلّت مصيبتهم  
مع البكاة، على من مات يبكونا  
- فما لبنت منّا قنأة صليبةٌ  
ولا ذلّتنا لتي ليس تجملُ

يريد المرأة وسيلة كالخمرة، كالناقة... ويريدها جميمة غنية:

وفي الحيّ أحوى ينفض المرء شادن  
مُظاهر سُمطي لؤلؤ وزبرجد  
يريدها ليحميها وليؤكد قدرته وقوته، وكى تصرخ  
النساء ويقلن، كما يقول عمرو بن كلثوم:

يقتن جياندا ويقلن: لستم  
بعولتنا إذا لم تمنعونا  
ويريدها أيضاً ليلهو بها:

- لهوت بها، والليل أرخى سدوله  
إلى أن بدا ضوء الصباح المبلّج  
- وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: أهو  
إلى الإصباح أثر ذي أثر  
بأنسة الحديث، رضاب فيها،  
بعيد النوم، كالعنب العصير  
وكثيراً ما يكون الاستيلاء عليها من طريق القوة،  
إما سبياً، وإما اعتداء عبر مغامرة ترضي عطش  
الذات إلى التأكد والتمتع، وهذا أكثر ما يبرز عند  
امريء القيس:

... سموت إليها بعدما نام أهلها  
سمو حباب الماء حالاً على حال  
فقلت: سباك الله، إنك فاضحي  
الست ترى السُّبَّار والناس أحوالي  
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعليها  
عليه القنم سيء الظن والبال  
يغط غطيظ البكر شد خناقه  
ليقتلني، والمراء ليس بقتال  
أبقتلني والمشرقي مضاجعي  
ومسنونة زرق كأنياب أغوال  
ألا يحبس الشيخ الغيور بناته  
غخافة جنبي الشمايل غخال

تهوي بكسكها والرأس معكوس  
- وإني لأمضي المهم، عند احتضاره  
بعوجاء مرقال تروح وتفتدي  
أمون كالأواح الأران نصاتها  
على لا حب كأنه ظهر بُرجد  
تبدو الناقة، هنا، وكأنها إحدى وسائل الجاهلي  
لتأكيد ذاته، أو إنها بعض ما يجعله واقفاً، وهو من  
هذه الزاوية ينظر إليها.

وهو يمضي المهم بعنتريس، كما يلهو بحور نواعم في  
المروط. وتكون هذه الحور أطيّب من الخمرة:

وما قهوة صهباء كالسك ربحها  
تعل على الناجود طوراً وتنزح  
بأطيب من فيها إذا جثت طارقاً  
في الليل، بل فوها ألد وأنضج

إنه التعامل مع الوجود كوحدة محورها الشاعر  
الفرد، وعلاقته بأشياء العالم تتحدد من حيث جدواها  
له ولبقائه قوياً غير منحن. انه يشرب الخمرة ليقال  
إنه سيد وإنه يعيش منعماً، متمتعاً بعيثه:

وكأس شربت على لذة  
وأخرى تداويت منها بها  
لكي يعلم الناس أني امرؤ  
أتيت المعيشة من بابها  
ويشربها لتتركه ملكاً وأسداً يحس السيادة وامتلاك  
القوة:

ونشربها فتركنا ملوكاً  
وأسداً ما ينهننا اللقاء

وطالما ان العيش ليس سوى «التمتع» كما يقول  
مجمع بن هلال: «وما العيش إلا التمتع»، فإن  
الجاهلي يريد المرأة، كما يقول الأعشى، «إما نكاحاً  
وإما أرن»؛ وذلك لكي تقر عينه من الغانيات، إنه



التجاوز، وهذا لإدراكه، أو لإحساسه بضرورة تماسكه من أجل إكمال مسيرته:

- فاقطع لبانة من تعرّض وصله
- ولخير واصل خلة صرامها
- ويثست مما قد شغفت به
- منها، ولا يسليك كالياس

**شخصية الفرد: سلوك وأخلاق وشكل في خدمة القضية**

إنها عاطفة إنسانية صادقة، وهي في خدمة الحياة. وقد انسحب هذا الموقف على مجمل علاقات الجاهلي، وصار سلوكاً ملازماً له، فالجاهلي كان حاسماً في قراراته يرفض الظلم، يقول ليبد:

أولم تكن تدري نوارُ بأني  
وَصَّالَ عَقْدَ حَبَائِلَ جَذَائِهَا  
تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا  
أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَفُوسِ حِمَامِهَا...

ويقول عنتره:

... اثني عليّ بما علمت فأنني  
سَمَحَ مَخَالِطِي إِذَا لَمْ أَظْلِمِ  
فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنْ ظَلَمِي بِاسِلِ  
مَرُّ مَذَاقَتِهِ كَطَعَمِ الْعَلَقِمِ  
وقد شكّلت تجربة الجاهلي سلوكه وأخلاقه أيضاً، فكان شرساً فظاً لأن من لم يهب يحمل على مركب وعر:

... وفي اللين ضعف والشراسة هيبة  
ومن لم يهب يُحمل على مركب وعر  
وما بي عليّ من لان من فظاظه  
ولكني فظُّ أبيّ على القسر  
فهو مثل السيف قاطع، مشترك اليسر، يقيم صغار ذي الميل حتى يعود إلى القدر، مصمماً على

ذات امرئ القيس عطشى، ليس إلى المرأة فحسب، وإنما إلى البدو منفرداً وحيداً، قوياً يتحدّى، يخافه الآخرون ويخشونه، يتمنون النيل منه، ولكنهم يتقونه. ويبقى هو البطل الفرد الذي يضاجعه «المشرقي» والأسنة الأغوال. ثم هو عطش إلى أن يكون المعشوق الذي تترك المرأة كل ما تملك من أجله: «وأصبحت معشوقاً». وهذا ما سوف يتبدى أكثر في ما يلي.

ويكثر امرؤ القيس من ذكر مغامراته النهارية والليلية ويخصّص هذه المغامرات النسوة المتزوجات: المرضعات والحوامل منهن بخاصة:

- .. وببيضة خدرٍ لا يرام خباؤها
- تمتعت من لهوها غير معجل
- .. ومنهن سوق الخود قد بلها الندى
- تراقب منظوم التائم مرضعا
- .. فمهلك حبلى قد طرقت ومرضع
- فألهيتها عن ذي تائم محول

وقد أخذ النقاد على امرئ القيس تغزله بنسوة حوامل ومرضعات، وهن أزهد الناس في الرجال، وقالوا: كان ينبغي أن يتغزل بالعذارى الجميلات. إنه، ومع اقرارنا بعدم جواز فرض موضوعات وأشكال شعرية مسبقه، نقول: إن امرأ القيس ما كان يتغزل وإنما أراد أن يستخدم مغامراته في نيل المرأة من أجل أن يؤكد ذاته ويثبت قدرته، فالمرأة هنا وسيلة لتحقيق الذات، إنه يتحدّى المجتمع، ويغتصب حقوق الآخرين، وترغب فيه نسوة هن أزهد الناس في الرجال ويغدو معشوقاً منهن، ليغدو الرجل الفرد الأقوى والأجمل والأفضل.

المرأة وسيلة، ومن هنا كانت خيبة الجاهلي معها لا تصل إلى درجة التهالك، فحزنه قد يصل إلى درجة الدموع، ولكنها الدموع الشافية المساعدة على

ذلك تصميم السريحي القاطع :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه  
وصمم تصميم السريحي ذي الأثر  
ويبدو أن هذه التجربة كانت تستلزم فتى قدّه مثل  
قدّ السيف :

فتى قدّ قدّ السيف لا متضائل  
ولا رهّل لبّاته وأباجله

ينبغي أن يكون الفرد الجاهلي ذا شكل جسدي  
ملائم لتحقيق الذات، ايضاً، في ظلّ شروط كشروط  
المجتمع الجاهليّ.

#### تجربة جديدة

وقد استمرت هذه القوّة ميّزةً في العربيّ إلى أن جاء  
الاسلام فجعلها قوّة مقبولة؛ إذ جعلها قوّة عادلة.  
فمما يروى، في هذا المجال، ان النابغة الجعديّ أشدّ  
النبيّ (ص) قصيدته التي يقول فيها:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا  
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وعندما وصل إلى قوله :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له  
بوادر تحمي صفوه أن يُكدرًا  
رضي عنه وعن قوله.

وهكذا، بدأت تجربة جديدة تغيرت فيها الشروط  
وتكوّنت جماعة جديدة كان للفرد تعامل معها جديد  
تشرطه الظروف الجديدة.

#### الفرد محوراً لقصيدة الجاهلية

ولعلّ هذه الرؤية التي حاولنا تحديد معالمها والتي  
انبثقت من موقف فرديّ تميّز هي التي تشكّل وحدة  
القصيدة الجاهلية في مختلف حركاتها، أو موضوعاتها،  
التي تعدّدت تعدّداً يخدم المحور الأساسي فيها، وهو  
ذات الشاعر التي تسعى للتحقق والبقاء واقفة قويّة.  
وقد غابت هذه الرؤية التي تشكّل وحدة القصيدة  
الجاهلية، عن كثير من الباحثين، فتحدثوا عن تفكّك  
في القصيدة هو في الحقيقة، تعدّد لجوانب رؤية مميزة  
للعالم والأشياء الحياة.

#### الحواشي

(1) لعلّه من المفيد تحديد الفترة الزمنية لموضوع بحثنا. وإنا نفعل ذلك مستدين إلى سنوات وفاة أبرز الشعراء الجاهليين، وهم: امرؤ  
القيس، 580 م؛ النابغة الذبياني، 604 م؛ عنتر بن شدّاد، 615 م؛ عمرو بن كلثوم، 622 م - 1 هـ؛ زهير بن أبي سلمى،  
727 م - 6 هـ؛ الأعشى: ميمون بن قيس، 629 م - 8 هـ؛ ...

وقد استندنا، في النصوص التي استشهدنا بها، إلى المصادر التالية: حسن السندوي، شرح ديوان امرئ القيس، القاهرة: المكتبة  
التجارية الكبرى، الطبعة الخامسة (ومعه أخبار المراقبة وأشعارهم، ويلي أخبار النواصب وآثارهم)  
- ديوان النابغة الذبياني، بيروت: دار صادر - شرح ديوان عنتر بن شدّاد، بيروت: المكتبة الثقافية.  
- شعر زهير بن أبي سلمى (صنعه الأعلام الشتمري: 410-467 هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوه، حلب: دار القلم العربي،  
الطبعة الثانية، 1973 - ديوان طرفة بن العبد، (شرح الأعلام الشتمري)، تحقيق د. زكية الخطيب، دمشق: مجمع اللغة العربية،  
1975. شرح المعلقات السبع للزوزني، بيروت: دار الجيل، 1979 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة دار الكتب، الجزء  
الثالث ص 73 وما بعدها - د. محمد محمد حسين الهجاء والمهاجرون، بيروت: دار النهضة العربية، ط 3، 1970.

- 
- (2) راجع، على سبيل المثال: نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى، دار الكتاب العربي، 67/1؛ د. محمد حسين، المهجاء والمهجاؤون، بيروت: دار النهضة العربية، 1970، 52/1، د. درويش الجندي، ظاهرة التكسب، القاهرة: دار المعارف بمصر، ص 34.
- (3) العمدة، بيروت: دار الجيل، 1972، 65/1.
- (4) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت: دار العلم للملايين، 74/1.
- (5) خزانة الأدب، القاهرة. 1947، 262/1.
- (6) المهجاء والمهجاؤون، مصدر سابق، 74/1.
- (7) طبقات الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، بيروت: دار النهضة، ص 134.